

القلب المتقي في القرآن الكريم



«ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ» (الحج/ 32).

(ذلك) خبر لمبتدأ محذوف يعني (الأمر كذلك) أي القضية حقا كذلك يكون بأمره من يعظم ويقدر شعائر الله فإن ذلك من علامة تقوى قلبه، و(الشعائر) جمع شعيرة بمعنى العلامة، ف(شعائر الله) العلام التي وضعها الله لتذكّر الإنسان بربه:

(إِنَّ الصَّافِيَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) (البقرة/ 158).

(وَالْيُدُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) (الحج/ 36).

فالجبل المنسوب إلى الله، والجمل المنسوب إلى الله يكون من شعائر الله، وكل شيء ينسب إليه سبحانه فهو علامة تشير إلى عظمته وصفائه وأسمائه الحسنى، فتعظيم وتقديس واحترام وتقدير شعائر الله سبحانه، وشعائر أنبيائه وأوليائه الكرام (عليهم السلام)، ذلك كله من تقوى القلوب، ثم إضافة التقوى إلى القلوب يعني أن حقيقة التقوى والاجتناب والاحتراز عن محارم الله عز وجل وغيبه إنما هو أمر معنوي يقوم بالقلب والنفس والروح المدبرة للبدن، فليست التقوى قائمة بالأعمال الجوارحية لأنها تشترك بين الطاعة والعصيان، فإن لمس البدن في النكاح المحلل والمحرّم واحد، وقتل النفس في الجناية والقصاص واحد، والصلاة فريضة ورياء واحدة، وإنما كان أحدهما حلالاً طيباً صالحاً دون الآخر، إنما هو باعتبار أمر معنوي وباطني، وهو تقوى القلب أو عصيانه.

فإذا وضع الله علامة فعلينا أن نطيعه ونقيم علالته ونعظم شعائره، فإن ذلك من حقيقة العبودية، ومن أتى بالواجبات الإلهية وترك المحرّمات وتورّع عن المأثم وتحرّز عن غضب الله، فإن ذلك من تقوى القلوب.

عن الإمام الرضا (ع)، قال: الإيمان فوق الإسلام درجة، والتقوى فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق

التقوى بدرجة، ولم يقسم بين العباد شيء أقل من اليقين.

يدل على أن التقوى أفضل من الإيمان وأعلى درجة، والتقوى من الوقاية وهي لغة: بمعنى فرط الصيانة، واصطلاحاً: صيانة النفس عما يضرها في الآخرة، وقصرها على ما ينفعها فيها، ولها مراتب ثلاثة:

الأولى: وقاية النفس عن العذاب المخلد بتصحيح العقائد الإيمانية.

والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك، وهو المعروف عند أهل الشرع.

والثالثة: التوقّي عن كل ما يشغل القلب عن الحق، وهذه درجة الخواص بل خاص الخاص.

والمراد هنا أحد المعنيين الأخيرين وكونه فوق الإيمان بالمعنى الثالث ظاهر على أكثر معاني الإيمان، وإن أُريد المعنى الثاني فالمراد بالإيمان إما محض العقائد الحقّة أو مع فعل الفرائض وترك الكبائر بأن يعتبر ترك الصغائر أيضاً في المعنى الثاني. وقيل: باعتبار أن الملكة معتبرة فيها لا فيه، ولا يخفى ما فيه.

قال بعض المحقّقين: اعلم أن العلم والعبادة جوهران لأجلهما كان كلّما ترى وتسمع من تصنيف المصنّفين وتعليم المعلّمين ووعظ الواعظين، بل لأجلهما أُنزلت الكتب وأُرسلت الرسل، بل لأجلهما خلقت السماوات والأرض وما فيهما من الخلق، وناهيك لشرف العلم قول [] عز وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بِأَنَّهِنَّ لِيَتَعَلَّمُوا أَنْ اللَّهَ عَلَّمَ كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدِيرٌ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا) (الطلاق/ 12).

فمن علم بقدره [] وبعلمه المحيط سيتّقي [] في كل الأحوال. ولشرف العبادة قوله سبحانه:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/ 56).

فحق للعبد أن لا يشتغل إلا بهما، ولا يتعب إلا لهما، وأشرف الجوهرين العلم، كما ورد عن الرسول الأكرم (ص): "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم".

والمراد بالعلم هو الدين، أعني معرفة [] سبحانه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، قال [] عز وجل:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ) (البقرة/ 285).

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (النساء/ 136).

ومرجع الإيمان إلى العلم وذلك لأن الإيمان هو التصديق بالشيء على ما هو عليه، ولا محالة هو مستلزم لتصور ذلك الشيء كذلك بحسب الطاقة، وهما معنى العلم، والكفر ما يقابله وهو بمعنى الستر والغطاء، ومرجعه إلى الجهل، وقد خص الإيمان في الشرع بالتصديق بهذه الخمسة ولو إجمالاً، فالعلم بها لا بد منه وإليه الإشارة بقوله (ص): "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة"، ولكن لكل إنسان

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة / 286).

فإنَّ للعلم والإيمان درجات مترتبة في القوَّة والضعف والزيادة والنقصان بعضها فوق بعض، كما دلَّت عليه الأخبار الكثيرة.

وذلك لأنَّ الإيمان إنما يكون بقدر العلم الذي به حياة القلب، وهو نور يحصل في القلب بسبب ارتفاع الحجاب بينه وبين الله جلَّ جلاله:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) (البقرة / 257).

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) (الأنعام / 122).

وليس العلم بكثرة التعلُّم، إنَّما هو نور يقذفه الله في قلب من يريد أن يهديه.

وهذا النور قابل للقوَّة والضعف والاشتداد والنقص، كسائر الأنوار:

(وَإِذَا تُلِيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (الأنفال / 2).

(وَإِذْ رَدَّ رَجُلٌ نَبِيَّ عِلْمًا) (طه / 114).

كلَّما ارتفع حجاب عن القلب ازداد نوراً، فيقوى الإيمان ويتكامل إلى أن ينبسط نوره، فينشرح صدره، ويطلُّ على حقائق الأشياء، وتتجلَّى له العيوب، ويعرف كلَّ شيء في موضعه، فيظهر له صدق الأنبياء (عليهم السلام) في جميع ما أخبروا عنه إجمالاً وتفصيلاً على حسب نوره، وبمقدار انشراح صدره، وينبعث من قلبه داعية العمل بكلِّ مأمور، والاجتناب عن كلِّ محظور، فيضاف إلى نور معرفته أنوار الأخلاق الفاضلة والملكات الحميدة:

(نُورُهُمْ يَسْعَى بِيَدَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) (التَّحْرِيم / 8).

(نُورٌ عَلَى نُورٍ) (النُّور / 35).

وكلَّ عبادة تقع على وجهها المطلوب فإنَّها تورث في القلب صفاءً يجعله مستعداً لحصول نور فيه وانشراح ومعرفة ويقين، ثمَّ ذلك النور والمعرفة واليقين تحمله على عبادة أخرى، وإخلاء آخر فيها يوجب نوراً آخر وانشراحاً أتمَّ ومعرفة أخرى ويقيناً أقوى، وهكذا إلى ما شاء الله جلَّ جلاله، وعلى كلِّ من ذلك شواهد من الكتاب الكريم والسنة الشريفة.

قال الإمام الكاظم (ع) في حديث لهشام: قال عيسى بن مريم... يا عبيد السوء، اتَّخذوا مساجد ربِّكم سجوناً لأجسادكم وجباهكم، واجعلوا قلوبكم بيوتاً للتعوى، ولا تجعلوا قلوبكم مأوىً للشهوات، إنَّ أجزعكم عند البلاء لأشدكم حبساً للدنيا، وإنَّ أصبركم على البلاء لأزهدكم في الدنيا. ►

